هدية حسين

امرأة الموج

لوحَتْ له وهي تستقرّ في بطن القارب. كان الغروب قد أوشك أن يودِّع خيوطَه الرماديّة ويذوب في الأفق.

الرجل يجلس في الطرف المقابل للنهر، في زاويةٍ منعزلة من مقهى عصريّ. أمامه طاولةٌ من الفورميكا. يَشْبك أصابعه تحت فكه، متمسكاً بالفكرة المجنونة. هي برهةٌ من زمن، لو تأتي، لو تَفْتح أبوابَ المستحيل وتَدْلق الأماني مرةً واحدة. لا.. هي أمنية واحدة تكمن في برهةٍ من زمنٍ مشحونٍ بالتوجُّس.

ترى كم من الأحداث يمكن أن تجري في برهة؟ بركان قد ينفجر ويصبّ سائلَه الدمويّ وصخورَه الناريّة الحارقة.. زلازل تشقّق وجهَ الأرض وتَطْمر البيوتَ والأشجارَ والبشر.. انقلابات وثورات.. تهجير وإبادة. برهةٌ تَفْتَح أبوابَ الزنزانات وتُغْلقها على وجوه سينسى أصحابُها أسماءَ أمّهاتهم. كل ذلك قد يحدث. فلا غرابة إذا ما تحولت الفكرةُ إلى واقع وجاءت تلك البرهةُ لتنهي أوجاعَ قلبه.

*

انطلق القارب.. شقَّ جسدَ الماء، وترك خلفه خيطاً أبيض من نثارٍ ثلجيّ، رامياً زبدَه الناصعَ إلى شاطئ النهر.

راح الرجل ينتظر تلك اللحظة، ويَخْفق قلبُه كلما ارتفع القاربُ فوق موجة عاتية. آه لو يرى تلك الأمنيةَ المستحيلةَ تنبثق أمام عينيه.

ومضى يرسم المشهد كما يراه، أو كما يتمنّى أن يراه: تأتي الموجة العاتية، تتبعها موجاتٌ أكثر جنوناً.. يرتفع القاربُ، ثم يفقد توازنه، فينقلب.. صرخة أو صرختان وينتهي كلُّ شيء.. قد ينجو ربّانُ القارب لأنّه ـ وهذا مؤكّد ـ يعرف العوم.. أمّا هي فسينتهي أمرُها. لا يدري لماذا أصرّت على صعود القارب مع أنّها لا تعرف السباحة. تشغف فقط خلال جولاتهما النهريّة بحركة الموج، تتابعه حتى ينتهي عند الصخور محرّكاً الطحالب والأشنات.

غمرتْه السعادةُ.. انتبه إلى أنّ القارب قد اختفى فعلاً رغم أنّه لم يسمع أيّة صرخة..

ـ هل يمكن أن تكون تلك البرهةُ التي انتظرتُها قد تواطأتْ مع غفلتي؟ كنتُ أتمنّى أن أعيشها.. أن أرى الوجه والذراعيْن وهما تحاولان التعلّق بأيّ شيء.. أن أسمع استغاثتها الأخيرة. لا، لا، ليس المهمّ أن أعيش اللحظة.. الأهم أنّها جاءت في وقتها.. هل جاءت حقاً؟ فليذهبْ جسدُها إلى بطون الأسماك، وروحُها إلى الجحيم!

*

كانت المرأة، وهي تستقرّ في بطن القارب، قد رفعتْ يدها لتحيّته كأنّها تودِّعه الوداعَ الأخير. وكان يمكنها، في الوقت ذاته، أن تَحْدس انفعالاته، وتحسّ أمنيته التي اكتشفتْ خيوطَ نسيجها قبل عدّة أشهر. حاسّة سادسة أو سابعة انبثقتْ فجأةً لتضعها أمام الواقع، بينما ظلّت سنواتٍ طويلةً تدحرج كرات الثلج التي اعترت حياتهما لتذيبها بعيداً عن رغباتها نحوه. وقد لاحظ خفوتَ صباباتها، وعندما أمعنتْ في لامبالاتها رسمتْ له خيالاتُه أموراً ما كانت تخطر على باله:

ـ أتراها اتخذتْ عشيقاً؟

ثم قلب المسألة من جانب آخر ليخفف عنه عذاب استغفاله:

ـ ربما هي لعبة تحاول أن تعيد من خلالها إليَّ حاسّة اللّمس وتوهُّجاتِها.. تعيد إلى أصابعي جمراتِها، وإلى جسدي موجاتِ هياجه.

*

وفاجأتْه موجةٌ ضربتِ الصخورَ القريبةَ منه.. نثرتْ على وجهه رذاذَها، وتناهى إليه صدى صرخة. أرْهف السَمع، وتلفّت في زوايا النهر واستداراته البعيدة. وقف على رمل الشاطئ، وراحت عيناه تبحثان: أضواء كاشفة للسيارات تمرق في الجانب الآخر وتضيء قممَ الأشجار. أعمدة النور البعيدة تومض على جسد النهر فتنكسر أشعتها في ارتعاشات سريعة. نخيل وظلال متحرّكة لا يميِّز أشكالها المتخفّية. أصواتٌ تتباعد وتتقارب، تتداخل وتنصهر، لتعزف موسيقى تَبْعث على خوفٍ مدجّن ومشاعر مزدوجةٍ: نسبةُ الرضا فيها تتّسع على حساب كميّة السخط الذي بدأ يتراجع كلّما مرَّ الوقت ولم يَظْهر القارب.

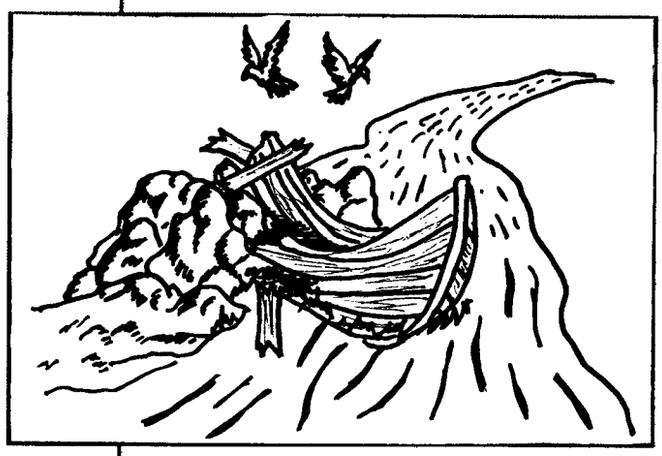

هل يُخْبر أحداً بما جرى؟ صاحب المقهى مثلاً؟ طَرَدَ هذه الفكرة سريعاً، فمازال الوقت مبكراً رغم علمه أنَّ دقائق معدودةً كافيةٌ لأن يتسرَّب الماء إلى جوف زوجته ويقطع أنفاسها. يكاد يختنق هو الآخر إذ يطفو المشهدُ أمام عينيه، حتى خيّل إليه أنّه يسمع صوت الفقاعات الخارجة من فمها تنفجر وتتلاشى. ثم نَظَرَ إلى ساعته وراودتْ شفتيْه ابتسامةُ فرحٍ أخفاها عن أشباح اللّيل. أحسَّ ـ وهو ينهض ـ كمن يَنْفض عنه حملاً ثقيلاً.. ها هو يتخلّص من المرأة دون أن تكون له يدٌ في رسم نهايتها. القدر وحده تواطأ مع أمانيه وقام بالمهمة نيابةً عنه. وشعر أيضاً بأنّه استردَّ حريّته التي فَقَدَها في زواجٍ دام عشرَ سنواتٍ موشومة بصدامات وانكسارات وصمتٍ جارح.

تنفّس بعمق، وتظاهر بالقلق عليها أمام رجال فرقة الإنقاذ الذين استمرَّ بحثُهم أربع ساعات، أخبروه بعدها أنَّ عليه الانتظارَ ثلاثةَ أيام حتى تطفو الجثّة.. أو بالأحرى الجثتان. القارب وحده وجدوه مقلوباً ومحشوراً بين صخرةٍ ناتئة وجذعِ شجرةٍ ميت. عليه الآن أن يستمرَّ في ارتداء قناع الحزن عدّة أيام. تراوده صورةُ جسدها: منتفخاً ومشوّهاً أكلتْ منه الأسماكُ أكثرَ الأجزاء طراوةً.. وكذلك جثّة ربّان القارب. أبعَدَ الصورةَ المشوّهة عن ذهنه. غادره القلق، عندما عزا الأمرَ إلى أنَّ الرب يريد له سلامَ النفس بعيداً عن أيّ صورة يمكن أن تنال من نشوة السعادات التي ستنهمر عليه. أخذ نَفساً أكثر عمقاً كأنّه لم يتنفسْ من قبل، مذ تيقَّنَ من غرق زوجته. سينام نوماً هانئاً، لا كوابيس فيه، ويصحو وقتَ يشاء من دون منبِّهِ صوتٍ يأمره أن يغادر الفراش. لا أحد بعد اليوم يردِّد كلّما عاد متأخراً:

ـ لماذا تأخّرتَ؟

تنفّس بعمقٍ ثانيةً وثالثةً، فأحسَّ بزهو الرجولة، بالسلطة على نفسه، بالرضا. كان القدرُ أرحمَ به،

فأسرع بالتنفيذ، قبل أن يتورّط فينتهي مصيرُه على يد جلاّدٍ لا يتوانى عن لفّ الحبل حول رقبته. عليه الآن أن يغيِّر ديكور البيت تمشّياً مع مزاجه... يبدّل ستائر الشيفون المزهّر بقماشٍ سميكٍ غامق.. يتخلّص من نباتات الظلّ التي تذكّره بشغف المرأة بها.. يُطْلق طيور الحب من قفصها عند الصباح الباكر كيما يشعر أنّ الحريّة ليست مجرّد كلمة.

واقترب من القفص.. ثلاثة طيور تتقاسم فضاءه الضيّق، ذكران وأنثى. ثم تساءل:

ـ لماذا ذكران وأنثى؟

كم تمنّى أن يكون الأمرُ معكوساً. وفاتحها يوماً بهذه الرغبة، فرمقته بحدّةٍ، ثم لانت ملامحُها وقالت برقّةٍ مشوبة بخبث:

ـ كلانا يعبِّر عما يحسّ به.

وقادهما ذلك إلى شجار خفيّ، وضعتْ له حدّاً بالمضيّ إلى النوم في غرفة منفصلة.

وتوالت أمام عينيه صورةُ تلك الصراعات المستمرّة بين الذكريْن من أجل أنثى واحدة، وكثيراً ما كان الأمرُ ينتهي بطيرٍ ينزوي في ركن من القفص.. كان الرجل يكرر السؤال:

ـ أيعجبك ذلك؟

فتردّ عليه ببرود:

ـ يسلّيني.

اقترح عليها مرةً أن تريح أحدهما، فتُطْلق واحداً وتُبقي على الثاني، فأجابته بصوتٍ جرّحتْه الرغبة:

ـ عندها سيلوذ الثاني بالصمت ـ إذ لا نزاع يزيد من حمى غرائزه ـ ويترك الأنثى فريسةَ غرائزها.

غافلها يوماً وأخرج أحد الذكريْن، أطلقه من الشبّاك إلى الفضاء. وحين اكتشفت الأمر أطلقتِ الأنثى، وتركتِ الذكَرَ، ثم أقفلتْ عليه باب القفص واحتفظتْ بالمفتاح في أحد أدراجها.

عند الصباح سيبحث عن المفتاح، ويُطْلق الطائر السجين. ومرّت أمام عينيْه صورةُ جلساتهما الثقيلة الخاوية حين تشيح بوجهها بعيداً عنه وتنسكب رؤاها في صورٍ لا يدرك أسرارها. هو أيضاً ينأى. ومع ذلك تشغله انشغالاتُها عنه وتَجْرح رجولتَه. وفجأة فطن إلى أمرٍ كان غائباً عنه: فهي منذ أسابيع لم تعد تسأل عن غياباته. أدرك أنّ حضوره يتحلّل خارج اهتماماتها. تناوبتْ عليه الصورُ وانهالت المشاريعُ في جوٍ عابقٍ برائحة عطرها الذي دلقتْه ـ على غير عادتها ـ في فراشه وزوايا غرفة نومه.

ثم أغفى حتى سقطتْ أشعةُ الشمس على وجهه المتعب. فرك عينيْه ونهض من فراشه. فتح النافذة وتطلّع إلى حركة الناس اليوميّة. خطر بباله ما مرّ به وتيقن أنّه لم يكن في واحد من كوابيسه المتكرِّرة. تجوّل في زوايا البيت وغرفه وممرّاته، وتذكّر الطيرَ السجينَ فأسرع لتفقّده. وجد باب القفص مفتوحاً، ومع ذلك فالطير لم يغادره بل لم يتحرّك حين دنا منه: كان جثّة هامدة، وثمّة ورقةٌ مدلاّةٌ من حلقةٍ وسط سقف القفص، تناولها بارتباك وراح يقرأ:

ـ «أتركُ رائحتي لك بضعةَ أيّام، فلعلّها تقول لك إنّ الأنثى تبعت الذَكَرَ على قاربٍ سيتركانه بين صخرةٍ ناتئةٍ وجذعٍ ميتٍ».

بغداد (عمان)